

الحاكمية القيمية والتجربة الإنسانية المفتوحة

الحاج أوحمنه دواق
باحث جزائري



قسم الدراسات الدينية

مدخل:

مرت مراحل التربية الإلهية للبشرية، لتأهيلها للقيام بدورها حضارياً وكونياً، بمراحل ثلاث، هي: مرحلة الفرد العائلة، ثم القوم العصبية، ثم العالمية، أو الإنسانية في أفق خروجها التام. "إن المسألة هنا هي مسألة إيجاد بديل حضاري يتفجر بالقوة الحرارية الكامنة فينا ويقوى الدفع الإلهي لنا، على طريق البديل... فكيف إذا جاءت هذه المهمة عالمية وليست قومية فقط، كما كان الحال في التجربة الإسرائيلية؟ إن تفجير حرارة النزعة العملية في إنسان الحضارة العالمية البديلة هو المطروح أمام كل المسلمين اليوم." (1) فالمهمة إذن حسب الوعي المقرر، هي تأهيل البشرية للانتقال إلى رحابة العالمية، باستيعاب الفردية والعائلية والقومية، ضمن إطار قيمي عريض هو الإنسان، لأنه خلق الله وخليفته المكرم، المحتاج إلى التكافل والتعاون في أفق رد الفساد ودفع الباطل، لا بالنظر إلى مصدره، بقدر ما يرد لذاته، لأنه لا يليق ذاتياً "قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً"، فطبيعة الانحصار غير لائقة ذاتياً، وتالياً، إذا حضر الإنسان الكوني، ضمراً آلياً وبحسبان الإنسان المتشردم المشرنق.

ونعرج على فكرة مهمة في البحث، وأعني بها التدرج الذي ارتقى فيه العقل البشري، وصولاً إلى مراحل متقدمة من الفهم الإنساني المتجاوز للحياة وعناصرها بغير الانكباب على الذاتية المقيتة، "فالإنسان ضمن تطور نمطية تفكيره من الإحيائي، إلى الثنائي والجدلي، يحتاج إلى جهد كبير ليصل إلى الرؤية الكونية التوحيدية، ليس بسبب قليل علمه، فالإنسان كائن مطلق قادر بنزوعه اللامتناهي على الوصول إلى هذه الرؤية الكونية" (2)، بل كثرة المعوقات الذاتية والموضوعية، قد تعجزه عن بلوغ ذلك، والدوران في دوامة الذاتية والإغراق في العنصرية الضيقة، الحائلة دون بلوغ البشر إلى مصاف الكائنات المتسامية، فما بالك إذا كان بتسديد رباني متعالٍ. لذا نسأل: ما هي أهم المؤسسات القيمة المولدة للحاكمية الإنسانية المتوازنة؟ وما هي أهم مبادئ الولاية العامة النازعة نحو حاكمية القيم والمنهج؟ وما هي مترتبات ذلك سياسياً وتاريخياً؟

أ- مؤسسات الولاية القيمة:

إن دلالة ربط الانتقال من الخصوصية إلى العالمية وختم النبوة دلالة عميقة ونوعية، خاصة إذا أخذنا في الحسبان أن البشرية، تمت رعايتها والعناية بها في مدد متطاولة، وقد حان زمن فطامها عن التوجيه الرباني المباشر وجودياً، فابتعدت النبوة ظاهرةً فريدةً عن زمام التوجيه، مما يفيد أن المتصدي لذلك بعدها، هو في مستواها وإن لم يكن منها، وأخص هنا الكتب والقائمين عليه، رعايةً وعملاً وتأويلاً. "إن ختام النبوة ليس مجرد

(1) محمد أبو القاسم حاج حمد، العالمية الإسلامية، العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، لندن: المكتب الدولي للبحوث والدراسات، ط 02، 1996. ج 02، ص 28

(2) محمد أبو القاسم حاج حمد، إبستمولوجيا المعرفة الكونية، المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، بيروت: دار الهادي، ط 01، 2003، ص 44

توقيت زمني فحسب، وإن كان لهذا التوقيت تقديراته الإلهية، فختامها يرتبط أيضاً بتقدير موضوعي، إذ ينتهي لديها الخطاب الحصري الاصطفائي لينطلق الخطاب العالمي، وهو خطاب ينطلق من الأرض المحرمة في مكة وليس الأرض المقدسة، ويرتبط بالقرآن المحفوظ الذكر⁽³⁾.

إن مفهوم الختم يفيد جاهزية البشر لتولي أمورهم مباشرة، وإن كان بتسديدات متعالية وليست متدخلة، والانتقال من الفرد الخاص، إلى الصورة الكلية المخاطبة في كل زمان ومكان، وإن هذا لهو خير برهان على ذلك، خاصة إذا نظرنا إلى المنطق القرآني، وكيف يستحث الإنسان والأدميين والعالميين إلى التوجه باتجاه المنظومة القيمية المطلقة، التي جاءت لهداية الناس أجمعين، بغض الطرف عن اللون والخصوصية، المهم توفير الرعاية الوجودية للجميع، باعتبار المستوى الثالث من الولاية، وأعني بها الهدائية، وهكذا تدرجاً حتى الوصول إلى مفهوم الناس كافة، "كافة للناس بشيراً ونذيراً"، وإلى منطق العالمية المفتوح، مقابل الحصرية الفردية والقومية.

ب- تشكل الأمة الوسط والتجهز للخروج:

الأمة الوسط من مستعملات الفيلسوف السوداني محمد أبو القاسم حاج حمد (2004) للتعبير عن شكل تاريخي جديد، تكون إثر تراكمات جدلية، ترجع في منابتها إلى الأصول الأولى للإنسانية، دفعاً للتاريخ إلى حوالي منطقة من العالم جغرافياً وقيماً، وقد جاءت تسميتها قرآنيًا "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم"⁽⁴⁾ و"تمتد الرقعة الجغرافية والبشرية للأمة الوسط ما بين الأرض الحرام، حيث منطلق الدعوة، والأرض المقدسة حيث امتدادها، وحيث يخرج الأميون بعد أن تحولوا إلى كتابيين باتجاه الأرض المقدسة وما حولها لتكوين الأمة الوسط، وهنا نجد ارتباطاً عضويًا بين مكانين، الأرض الحرام وما حولها، والأرض المقدسة وما حولها، فقد توجهت النبوة والرسالة الخاتمة في مبتدأ دعوتها للأميين العرب والكتابيين على حد سواء، فكانت القبيلة القبلة باتجاه الأرض المقدسة... (ثم حولت)، فالأرض المقدسة وأهل الكتاب فيها هدف مستقطب جغرافياً وبشرياً منذ بداية الدعوة، واستقطاب الهدف جزء أصيل من الرسالة نفسها على طريق تحقيقها لعالميتها"⁽⁵⁾.

(3) محمد أبو القاسم حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الطبيعية والإنسانية، بيروت: دار الهادي، ط 01، 2004، ص 52

(4) سورة البقرة، آية 143

(5) حاج حمد، إبستمولوجية المعرفة الكونية، ص 315

هذا النطاق العريض والمركزي من الأرض والبشر، تشكل مقابلاً قيمياً وإنسانياً للتجربة الإسرائيلية قديماً وحديثاً، وآية ذلك تركزها في قلب العالم الإسلامي، مما يحث الجانبين على إبراز المخزون القيمي للأديان، وتطبيقاتها، وأيها أكفاً وأكثر ترشحاً لقيادة البشر في تاريخهم القادم والأغنى بالنسبة لما مضى كله. "ثم جعلت الأمة الوسط في مقام الشهادة على الناس من حولهم، والشهادة حضور إنساني ومكاني، ولا علاقة للشهادة على الناس بالوسطية الفكرية، وإنما علاقة الشهادة هي بالخروج الجغرافي والبشري إلى الناس"⁽⁶⁾ ويتجلى بوضوح، في هذا المقام، الطابع القيمي لقيام الأمة الوسط بدورها تجاه الآخرين، بدعوتهم وإقامة الحجة عليهم، وهنا نعود إلى المعنى السالف للاصطفاء بوصفه أهلية ومسؤولية تجاه الآخرين جميعاً، للعمل والتعاون معهم، لبلوغ أرض السلام والتوافق، بعيداً عن تأليبات الصراع ومؤامراته.

واعتقد أن حاج حمد لم يشر بعفوية إلى التمايز الوجودي والعقدي بين الأرض المقدسة والأرض الحرام، باعتبار أن جميع النبوات والرسالات تركزت، في حدود المخبر به قرآنيًا، في الأرض المقدسة؛ أي حول الأرض الحرام، وليس فيها، في حين أن النبوة الخاتمة ظهرت بين ظهراي أبناء الأرض الحرام، وبالضبط في جوار الكعبة بيت الله الحرام، مما يفيد أن المهمة التاريخية للأمة الوسط هي أركز وأعرق من سابقتها، إن لم يكن من حيث المضامين، فعلى الأقل نقلها إلى أفق الرحابة الواسعة المتجاوزة للأشكال المندمجة.

وهنا بالذات "جاء محمد كآخر الأنبياء ليوحد شعباً من القبائل ويدفع بهم إلى خارج الصحراء بعد أن حملهم كلمة الله. وكلمة الله ليس كما يراها كثير من الناس في حدود ما شرع من عبادات ومعاملات، وإلا لكفى محمداً تلك الحنيفية الإبراهيمية التي اتخذها محوراً لعباداته في غار حراء ولمدى أربعة عشر عاماً قبل الرسالة، بل كانت كلمة الله ولا زالت تلك الحكمة العريضة الشاملة التي تنفذ من خلالها إلى الفهم الكوني، بشكل تستقطب معه كل استعدادات الإنسان وكمالاته الذاتية... وأول معارج هذه الحكمة أن نتبين موقع الرسالة المحمدية في إطار السياق التاريخي لعلاقة الغيب بالأرض، كما يطرحها القرآن نفسه"⁽⁷⁾.

الدفع خارج جزيرة العرب المحدودة ليس انتقالاً في المكان، وإن كان، وإنما تدرج في الوعي أخذ بأزمة الإنسانية إلى مستوى روحانية ومبدئية تجاوزت فيه حدودها الذاتية وانطلقت، لتلقف الماهية المطلقة المتوزعة في جنبات الأرض والتاريخ، بمعيار الربانية المتعالية، والعالمية الممتدة عمقاً وطولاً، قال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون"⁽⁸⁾.

(6) المرجع نفسه، ص 319

(7) حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، ج2، ص 74

(8) سورة آل عمران، آية 110

جاء في تفسير الآية: قوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس" المراد بإخراج الأمة للناس، والله أعلم، إظهارها لهم، ومزية هذه اللفظة؛ أي "الإخراج"، أن فيها إشعارًا بالحدوث والتكون قال تعالى: "الذي أخرج المرعى" (الأعلى 4)، والخطاب للمؤمنين، فيكون قرينة على أن المراد بالناس عامة البشر والفعل، أعني قوله: "كنتم" منسلخ عن الزمان، على ما قيل، والأمة إنما تطلق على الجماعة والفرد لكونهم ذوي هدف ومقصد يؤمرونه ويقصدونه، وذكر الإيمان بالله بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبيل ذكر الكل بعد الجزء أو الأصل بعد الفرع.

فمعنى الآية أنكم معاشر المسلمين خير أمة أظهرها الله للناس بهدايتها، لأنكم على الجماعة تؤمنون بالله وتأتون بفريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المعلوم أن انبساط هذا التشريف على جميع الأمة لكون البعض متصفين بحقيقة الإيمان والقيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا محصل ما ذكروه في المقام.

والظاهر، والله أعلم، أن قوله تعالى: "كنتم" غير منسلخ عن الزمان، والآية تمدح حال المؤمنين في أول ظهور الإسلام من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والمراد بالإيمان هو الإيمان بدعوة الاجتماع على الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق فيه، مقابل الكفر به، على ما يدل عليه قوله: "أ كفرتم بعد إيمانكم"، وكذا المراد بإيمان أهل الكتاب ذلك أيضًا، فيؤول المعنى إلى أنكم معاشر أمة الإسلام كنتم في أول ما تكونتم وظهرتم للناس خير أمة ظهرت، لكونكم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعصمون بحبل الله متفقين متحدين كنفس واحدة، ولو كان أهل الكتاب على هذا الوصف أيضًا لكان خيرًا لهم، لكنهم اختلفوا، منهم أمة مؤمنون وأكثرهم فاسقون".⁽⁹⁾

نخلص إلى أن محمداً، صلى الله عليه وسلم "قد جاء ليختم مرحلتي العائلية والقبلية بمعناهما الحصري، وليبدأ طريق البشرية بعالمية الأميين العرب ومن يلتحق بهم، ثم يكون الاستواء على العالمية الشاملة، ومن هنا تكتسب العروبة شخصيتها المركزية في إطار عالمية الأميين الأولى كقوة مستقطبة لكل الحضارات وكل الأعراف، وفي موقع الوسط من العالم".⁽¹⁰⁾

إذن تكونت الأمة الوسط، ثم أمرت بالخروج، ثم هي مسؤولة حضاريًا على الشهود وتأييد الأمانة، وهنا يحدث انتقال غير عاد من فرد وعائلة، إلى قوم، ومنهما إلى عالمية قلبها أمة، بالمعنى الحضاري وليس بالإحالة القومية العصبوية، وهنا تظهر الأمة الإنسانية، بديلاً عن أشكال الحاكمية السالفة وتوصيفات أنظمتها للحياة وتسييرها أمورها.

(9) محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، تفسير سورة آل عمران.

(10) حاج حمد، الأزمة الفكرية والحضارية في الواقع العربي الراهن، بيروت: دار الهادي، ط01، 2004، ص 332

ج- قيومية الأمة والكتاب وخصائصها:

من الناحية النظرية، تطرح قيومية الكتاب وهميته، كبديل منهجي وإطار حضاري، مقابل الحصرية الضيقة، ومفاد قيام الكتاب والأمة مقام العرق الواحد والانتساب المحدود، هو هيمنة مجموع توجهات إنسانية مشدودة إلى اعتبارات معنوية أخلاقية، تسمو بالإنسان من وهدة التلبس بشرطيات طبيعية، إلى الوعي بعالمية الإنسان وكونية انتمائه، بتسديد من الله القيوم على الوجود كله، من خلال أحكامه التكوينية والتشريعية والهادئية، والكتاب هنا ليس مجرد آيات تتلى للتبرك، وإنما هو مدونة قيم مركزية، تحمل بين جنباتها إرشاداً متعالياً لكل الإنسانية عبر تاريخها الطويل، سواء من حيث إنشاء النظم وبنائها وتأسيسها، أو من حيث تنفيذها وتطبيقها، مجارة لمبدأ التأسيس أولاً، ثم إيجاد ضوابط الرعاية والحماية. ودالة القيام ترجع إلى الحكمة المتضمنة فيه، والتي تستبطن تجارب البشرية في امتدادها الطولي والعرضي، يقول تعالى: "وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، فاحكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون".⁽¹¹⁾ يقوم النص القرآني على استرجاع تجارب السابقين للتصديق عليها، ثم الهيمنة عليها، "وبذلك يتقوم القرآن ككتاب للبشرية جمعاء تحاور من خلاله موروثها، ذلك إذا أمكن للمسلمين من دارسي هذا الكتب إعادة اكتشاف تجارب النبوات بنفس الكيفية النقدية التي استرجع بها القرآن تلك التجارب محدداً نمط علاقاتها مع الله ومع الكون ومع مجتمعها ومع نفسها... قد مارس القرآن في معظم صفحاته هذا النقد التراثي، ليس بقصد إحداث قطيعة مع التراث الروحي للبشرية، ولكن بقصد استعادة هذا التراث إلى حقيقته في مجرى التوحيد... لم يكن ذلك الاسترجاع النقدي لموروث البشرية الروحي مجرد إعادة تصحيح لمجريات القصص النبوي، بل يحمل كل استرجاع في داخله تحليلاً دقيقاً لجانب مميز في التجربة النبوية".⁽¹²⁾

الكتاب إذن، متوجه إلى نقل تجارب السابقين من التنزيل الضيق على أحوالهم المحدودة، إلى طرحها في سياق عالمي ممتد، مما يعطيه أبدية التوجيه، وخلود العطاء، كإمكان ممتلئ بالمعنى والقيم، وغاص بالمقدرة على اكتشاف نظم للحياة متكاثرة، لكن تحت مظلة القيمية المعنوية؛ "فالقرآن باسترجاعه لقصص الماضي، إنما يكشف في الواقع عن عيوب المنظومات الفكرية والثقافية، أو عن الأشكال الأيديولوجية الماضية التي

(11) سورة المائدة، آية 48

(12) حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، ج 02، ص 103/101

قدمت المنظومات الإحيائية الظاهرات الطبيعية، وتعاملت معها في صور فردانية، وألبست النبوات تفسيرات خرافية-أسطورية⁽¹³⁾.

من الخصائص الملازمة لحاكمية قيومية الكتاب:

- أن الأمة نتاج كتاب قيمي متجاوز، اتصل بمعنى أخلاقي إنساني، وليس باعتبار خصوصية معينة، ويمكن لأي متلبس بمعانيه أن يتحول إلى عامل به وله، وليست تسميته للمنتمي ذات دلالة طبيعية، وإنما تعريفه راجع إلى هوية إنسانية غير مشدودة إلى زمان ومكان معينين.
- الذين كونهم الكتاب خرجوا للرسالية والدعوة، وليس للتعبير عن قومية ذاتية، وتاليًا هم مسؤولون عن الناس جميعًا، وخالصهم الفردي لا يبرر، إن لم يتم، في نطاق الخلاص الكوني.
- الرابط الجامع بين المنتمين إلى الأمة القيمية، هو التأليف، وليس العصبوية الدموية، والدليل أن مقدار الترابط يرجع إلى أساس تراحمي قيمي، وليس بشرط تعاقد مدني.
- اتسم التشريع للحياة الإنسانية في رحابة القرآن، برفع الإصر والأغلال التي كانت على السابقين، والانتقال بهم إلى وضع التخفيف، والتعامل وفق ما تقتضيه الآية الكريمة: "لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها".
- خطاب الكتاب عالمي كوني، فوق التاريخ، وإن استصحب شرطه في العمل والتأثير، فهو للناس كافة، مهما كان اللون والجنس والعرق، ولا يفرق سوى مستحدثات آليات الترابط، النائية عن تسديدات الوحي وإرشاداته.
- العلاقات العالمية ميزانها الخروج ودعوة الآخرين، وليس التوطن والانكفاء على الذات، وهنا تمارس سلطة تضع الآخر في حسابها، ولا تشرع لذاتية أنانية دون مراعاة ما للآخر من حقوق.
- ارتباط المعنى القرآني بتحريم الأرض، وليس بتفديسها، بمعنى هي محرمة لا يدنسها من تلوثت نفسه، بدواعي القومية الضيقة، والذاتية المقبته، بل هي مهبط العالمين جميعًا.
- النظام الحياتي يبني على الإحسان والعفو والتجاوز، وليس على غلظة التكفير والاثام بالفسق، لذا تستعمل أدوات التطهير والتركية الجماعية، عكس الحال في تجربة الحصرية.

(13) المرجع نفسه، ص 105

- يتمحور الخطاب على نطاق المضامين والمحتويات المعنوية، وليس على الأشكال والإلزامات الظاهرية، وإن كانت حاضرة، لكن ليست مقصودة، وإنما متعددة إلى تحقيق أوفى أشكال الحياة الكريمة التي تحفظ فيها كرامة العالمين، لكونهم كذلك، "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً".⁽¹⁴⁾

خلاصة:

نورد في هذا المقام، خلاصة للكلام، نصًا لحاج حمد جاء فيه: فأن نعيش لحظتنا الكونية الحاضرة بكل مواصفاتها، فذاك لا يلغي امتدادنا عن ما قبل ومصيرنا إلى ما بعد، تمامًا كما تعاملنا في لحظتنا المعاصرة والحاضرة بروى منهجية ومعرفية للقرآن المطلق، لا يلغي امتدادنا عن الحقبة النبوية الشريفة من قبلنا، واستيعاب وتجاوز تلك الحقبة النبوية لما سبقها من ديانات وكتب صدقتها، ثم هيمنت عليها ونسختها باتجاه عالمية الخطاب، وحاكمية الكتاب، وشرعة التخفيف والرحمة، ثم التفاعل مع كل المناهج المعرفية استيعابًا وتجاوزًا، ومع كل الأنساق الحضارية استيعابًا وتجاوزًا".⁽¹⁵⁾

⁽¹⁴⁾ الإسراء، آية 70

⁽¹⁵⁾ حاج حمد، ابستمولوجية المعرفة الكونية، ص 389



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com